الأنثروبولوجيا وتكاملية المعرفة

أ.د. محمد عباس إبراهيم

المقدمة :

يهدف العنوان المطروح لهذه الورقة البحثية إلى الوقوف على حقيقة هامة في مجال البحث العلمي الأنثروبولوجي، ألا وهي أن الأنثروبولوجيا Anthropology (علم الإنسان) وقبل أن تؤسس في أواخر القرن التاسع عشر كمجال بحثي في سلوك الإنسان مع نفسه ومع الآخرين، ورغم توسعاتها بعد ذلك في مجالات الدراسة إلى ميادين عدة، إلا أن الأنثروبولوجيا لم تتناول دراسة الإنسان وسلوكه بمفردها، وإنما تشارك أو يشترك معها مجموعة من المعارف الإنسانية والسلوكية هدفها جميعاً الوصول إلى معرفة حقيقية بتطور ورقي وتقدم سلوكيات الإنسان.

وتشارك الأنثروبولوجيا الكثير من العلوم في هذا التوجه البحثي المنهجي، فهي قريبة الصلة بالعلوم الطبيعية التي تبحث في الإنسان باعتباره جزءا من الطبيعة، فالإنسان جسد وروح، وهنا يأتي مجال البحث في الجسد (أنثروبولوجيا الجسم) وتكوينه، ونشأته، ونموه، وعناصر تكوينه، ووظائف أعضائه، لاسيما وظائف ملكات الفكر والمعرفة، فعن طريقها تبنى "أنماط الفكر والمعرفة" لدى الجماعات والشعوب، والفئات العمرية، إلى جانب العلوم الطبية وفصائل الدم والتشريح ووظائف الأعضاء الحركية وعلاقاتها بالإشارات الصادرة عن الدماغ أو خلايا المخ، ودور المبحث الخاص بالصحة العامة، في العادات الغذائية وأساليب الحياة في النظرة إلى الصحة والمرض. فضلاً عن علوم حضارة الإنسان وثقافته وتاريخه الزمني على الأرض وما خلفه من موروثات حضارية أركيولوجية Archaeological أي أثرية تظل شاهداً على وجوده عبر التاريخ، وباعتباره موضوعاً للبحث لا ينقطع سواء في الماضي أم الحاضر، فإذا كانت الأنثروبولوجيا والعلوم الحضارية تبحث في ماضي الإنسان وتاريخه الثقافي فإنها لا تقصد التأريخ أو التدوين فقط، وإنما تدرس إنسان الماضي، من أجل خدمة إنسان الحاضر والمستقبل، وهكذا يظل التواصل المعرفي والبحثي قائماً مهما صادف من عقبات أو عثرات لتعطيل مسيرته المنهجية.

---

* أستاذ بقسم الأنثروبولوجيا، كلية الآداب – جامعة الإسكندرية.

أما الأقرب إلى الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) في منظومته التكاملية موضوعاً ومنهجاً فهي علوم المجتمع مثل علم الاجتماع Sociology والخدمة الاجتماعية Social Work إضافة إلى علوم السياسة والاقتصاد والتربية والقانون والدين تؤسس كل هذه المسالك البحثية وغيرها في إطار محكم من الدراسات البيئية في بعديها الطبيعي "الجغرافي" والإنساني "المجتمعي". فتأتي نظرة الأنثروبولوجي للإنسان نظرة واقعية، لأنه في الوقت الذي ينظر إليه على أنه مخلوق اجتماعي، فإنما ينظر إليه ككائن بيولوجي أيضاً، وهنا تجسيد لتكاملية منهجية البحث في الأنثروبولوجيا "علم الإنسان".

ورغم الاتساع والتوسع الرهيب الذي حدث مؤخراً في مجالات البحث الأنثروبولوجية في المراكز البحثية العالمية والإقليمية، إلا أن الأنثروبولوجيين الأوائل حرصوا على صياغة إطار عام متفق عليه ألا وهو تقسيم مجالات البحث في الأنثروبولوجيا وتفريعها إلى المجالات التالية :

١- الأنثروبولوجيا العامة General Anthropology
٢- الأنثروبولوجيا الفيزيقية (الطبيعية) Physical Anthropology
٣- الأنثروبولوجيا الثقافية Cultural Anthropology
٤- الأنثروبولوجيا الاجتماعية Social Anthropology

وإذا كان ما سبق هو إطار عام للتصنيف والتحديد في سياقه الأولي تسهيلا للقارئ أو الباحث المبتدئ إلا أن هناك الكثير من الاهتمامات البحثية بحسب موضوعاتها المطروحة على مائدة الحوار البحثي / العلمي كلٍ في مجال اهتمامه ومن أمثلة تلك الاهتمامات – على سبيل المثال لا الحصر – ما يلي :

١- اهتمت الأنثروبولوجيا العامة في نشأتها الأولى بتتبع الصيغ العامة للفكر الإنساني في ظواهر وأنساق Systems الحياة الاجتماعية (الزواج ونظمه المختلفة) والحياة الاقتصادية (الملكية بين العامة والخاصة) الإثنوجرافيا البشرية Human Ethnography (الخريطة المعلوماتية للجنس البشرى) المعتقدات الغيبية في عموميتها (السحر والشعوذة والخرافات والدين) الإنسان (بين التفرد والتشابه والاختلاف والتكامل) ... الخ.

٢- النظر إلى دراسة الإنسان من منظور أنه مخلوق ضمن المخلوقات كحلقة مميزة ومتميزة ضمن سلسلة التنوع الحيوي أو البيولوجى على الأرض، فسارعت الأنثروبولوجيا الفيزيقية أو الطبيعية أو الجسمية Anthropology of the body بدراسته.

٣- دراسة الإنسان باعتباره عضواً يعيش داخل مجتمع له علاقات اجتماعية تم نسجها بأنوال إنسانية مختلفة، وجد نفسه مشاركاً فيها بإرادته، أو بغير إرادته، كيف يعيش ؟ وكيف يحقق لنفسه التوازن المرضي بين مطالبه الذاتية، وحقوق غيره عليه ؟ وهكذا أصبحت علاقات الإنسان الاجتماعية داخل نسيج لشبكة من البناء الاجتماعي Social Structure تتداخل فيها خيوط البيئة مع الاقتصاد مع نظم العائلة والضبط الاجتماعي والقانوني والسياسي وغيرها لتسهم الأنثروبولوجيا الاجتماعية بدراسة ذلك.

النظر إلى الإنسان باعتباره مخترعاً ومنشئاً وحاملاً للثقافة Culture عبر رحلة طويلة من الأجيال المتعاقبة، فتأسست مجالات بحثية في الإنسان الأول Early Man وفي الإرث الحضاري الأثري، والحضارات القديمة، وما قبل التاريخ Prehistory وفي أنماط الثقافة، واللغة، والمنتجات المادية، والعادات والتقاليد والأعراف، وأنماط السلوك والموروث الشعبي والقيم، والأديان، ووحدة الطبيعة الإنسانية، والفكر، والأزياء، وعادات الطعام، والتحريم، والفضائل والعموميات والخصوصيات، وثقافات الشعوب إلى غير ذلك من مجالات بحثية لا تنتهي كانت وما تزال مجالات بحثية في فرع الأنثروبولوجيا الثقافية.

الوضعية الفرنسية : من الفكر إلي التطبيق

يشير تاريخ الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) إلى أن اختلاف مناهج البحث فيه لا يرجع إلى اختلاف الباحثين وحدهم فيما بينهم، وإنما يرجع إلى حركة التطور العلمي التاريخي لمفهوم الأنثروبولوجيا ومجالاتها، وفروعها الرئيسية وموضوعات البحث فيها، والهدف من دراستها، هذا بالإضافة أيضاً إلى تأثير التيارات الفكرية (فلسفية كانت أم وضعية) والتي زامنت مراحل تطور الفكر الاجتماعي بصفة عامة، والفكر الأنثروبولوجي واهتماماته وتطبيقاته بصفة خاصة، وهي تلك التأثيرات المنهجية الكبرى التي أثيرت حول إمكانية دراسة الظواهر الاجتماعية والثقافية.

وتمثل محاولة المفكر الاجتماعي الفرنسي أوجست كومت (Augest Comte, 1798-1857) المحاولة الرئيسية الأولى التي أكدت على ضرورة الفصل بين ما هو فلسفي أخلاقي وما هو نظري إمبيريقي (تطبيقي) لدراسة المجتمع الإنساني وقضاياه المتغيرة، هذا في الوقت الذي كان فيه كومت متأثراً بالمناخ الفكري والثقافي الذي ساد فرنسا في بدايات القرن التاسع عشر، والذي كان من نتائجه أن حققت الرياضيات والعلوم الطبيعية نتائج وإنجازات كبيرة في تطبيق مناهجها القائمة على التجربة الواقعية والمشاهدات والاستنتاجات، ومن ثم تعميم القوانين المستخلصة من تلك التجارب، هذا في الوقت الذي كانت فيه العلوم الإنسانية تتعرض لتأثيرات فكرية تنطوي على مجرد الاعتقاد بوجود قوانين مشابهة للقوانين المستقرة والراسخة في العلوم الطبيعية، ومن أهم تلك القوانين التي شغلت علماء ومفكري العلوم الإنسانية قانون التقدم Progress، والذي يشير إلى ضرورة تطور المجتمعات الإنسانية نحو مراحل أفضل.

ويعتبر كتاب "دروس في الفلسفة الوضعية" الذي خرج من ستة مجلدات، من أهم أعمال أوجست كومت في ثورته على الفلسفة التقليدية، وذلك من خلال تضمنه على توجيه محدد نحو دراسة الواقع الاجتماعي، في إطار من الوضعية Poitivism التي تعني القدرة على فهم الحياة بعيداً عن التأمل العقيم، وعلى أساس من المعرفة المقننة، وهكذا تحدد الإطار الفكر المنهجي لأوجست كومت في ثلاث مقولات أساسية هي:

١- العمل على صياغة بناء Structure (أو تركيب معرفي) موحد يتضمن عدداً من المناهج القادرة على فهم المعرفة وتحصيلها وتطورها في ضوء مجموعة من العلوم والمعارف الإنسانية المتنوعة.
٢- العمل على صياغة مجموعة من الأسس والمبادئ المنهجية الملائمة للتحليل والتفسير لظواهر الحياة الاجتماعية.
٣- صياغة مفهوم جديد "للفعل" Action الاجتماعي يستند إلى أسس منهجية إمبريقية (تطبيقية) يكون لها نتائجها عند التطبيق الخاصة بنزعة الإصلاح الديني والأخلاقي في المجتمع "المتقدم".

هذا وقد نظر أوجست كومت إلى طبيعة الحياة الاجتماعية والسلوك الاجتماعي من خلال شبكة العلاقات الإنسانية أو الاجتماعية القائمة على المشاعر Feelings، والأفكار

Thoughts، والأفعال Actions وعلى نحو يمكن معه تمييز ثلاثة مراحل للتطور الاجتماعي، وهي المرحلة اللاهوتية Theological التي تتجه فيها مشاعر الإنسان إلى البحث عن طبيعة الأشياء، وأسبابها وغاياتها، ثم المرحلة الميتافيزيقية Metaphysical وهي التي اتسمت بالتأمل العقلي، والوصول إلى معان ودلالات جوهر الأشياء، وذلك في ضوء أساس سليم للمعرفة يستند إلى الماهيات الكبرى، ثم جاءت المرحلة الثالثة وهي مرحلة الوضعية Positivism، والتي إتجه فيها الإنسان إلى التمرد على الافتراضات والماهيات اللاهوتية والميتافيزيقية، وراح يبحث عن الأسباب الحقيقية لوقوع الظواهر الواقعية(١).

وإذا كانت جذور البدايات الأولى للفكر المنهجي الأنثروبولوجي تمتد إلى الفترات التاريخية التي سادت فيها آراء الفلاسفة الأخلاقيين والاجتماعيين، والتي اتسمت بالطابع النظري الفلسفي سعياً إلى الوصول إلى صياغة قوانين ومبادئ عامة كلية شاملة تصدق على الجنس البشري كله، إلا أن الجهود التي بذلت في القرن التاسع عشر كانت هي البداية الحقيقية لنشأة الفكر الأنثروبولوجي منهجياً، لاسيما وأنها تلازمت مع تغيرات هائلة في المجتمع الأوروبي، وهي الفترة التي وسمت بعصر الآلات والتصنيع والاستكشافات العلمية، واتصال أوروبا بالعالم الخارجي، مما غير كثيراً من النظرة تجاه العلوم الاجتماعية، حيث أقام كثير من العلماء تفسيراتهم عن تطور المجتمعات والنظم الاجتماعية تبعاً لفرضيات التقدم والتطور.

وفي خضم تلك المحاورات الموضوعية والمنهجية حول فهم طبيعة المجتمع الإنساني وتطوره ظهرت آراء العالم الفرنسي إميل دوركيم (Emile Durkheim, 1858-1917) والتي طوعها نحو معالجة الظواهر الاجتماعية معالجة منهجية علمية أستهدفت الكشف عن طبيعة الظواهر وصولاً إلى إدراك الحقائق الاجتماعية، ورغم أن إميل دوركيم قد أصدر عدداً من المؤلفات الهامة في مجال النظرية والمنهج، إلا ان كتابه بعنوان: قواعد المنهج في علم الاجتماع الذي نشره في عام ١٨٩٥ يُعد أحد المؤلفات الهامة في العلوم الاجتماعية حيث سار دوركيم في هذا الكتاب على النهج الوصفي الذي بدأه أوجست كومت، وبلور دوركيم نزعته المنهجية في محورين.

- يقوم الأول على التحديد الدقيق للظاهرة الاجتماعية موضوع الدراسة.
- ويقوم الثاني على إمكانية الملاحظة والتفسير بنفس الطريقة التي تستعين بها العلوم التطبيقية في معالجتها لفهم ودراسة وتفسير الظواهر الطبيعية.

وعليه يرى دوركيم ضرورة النظر إلى الظواهر الاجتماعية كما لو كانت "أشياء" في عالم تجريبي تخضع للملاحظة والوصف والتصنيف والتحليل، هذا بالإضافة إلى تميز الظواهر الاجتماعية بالجبرية والإلزامية، وخروجها عن مستوى الأشخاص والأفراد في عالمهم الواقعي، وتميزها بالخصوصية / والعمومية في آن واحد.

وقد كانت لآراء إميل دوركيم المنهجية في دراسة الظواهر الاجتماعية أثر كبير في توجهات علماء الأنثروبولوجيا، الامر الذي أثار كثيراً من الجدل حول العديد من القضايا المنهجية في الفكر الأنثروبولوجي.

ويُعد العالم البريطاني رادكليف براون Radcliffe – Brown[٢] من أبرز الأنثروبولوجيين الذين تأثروا بآراء إميل دوركيم، فهو يعتبر بحق صاحب الإتجاه الدوركايمي الجديد في مجال الأنثروبولوجيا، حيث جاهد رادكليف براون من اجل إكساب الأنثروبولوجيا الاجتماعية خصائص العلم الطبيعي، لاسيما في نظرته إلى الأنساق الاجتماعية على أنها أنساق طبيعية يمكن ردها إلى قوانين اجتماعية، بغض النظر عن معرفتنا التاريخية لها.

ولكن يبقى التساؤل لماذا القرن التاسع عشر؟ لأن الملازمة التاريخية لهذا القرن وظهور الآلات الصناعية، وتطور أساليب الاتصال والاستكشاف، والسباق الاستعماري الأوروبي خارج أوروبا، والميل نحو النزعة العلمية والموضوعية لتفسير الوقائع والظاهرات، كل ذلك جعل العلماء والمفكرين والمهتمين بشئون حياة الإنسان في شتى المجمعات سواء كانت حضرية أم بدائية، يتجهون إلى الدراسات الحقلية الميدانية للوقوف على الأسس الأولية التي تسهم في تفسير الظواهر والمجتمعات المدروسة.

وفي سياق الرحلات الاستكشافية المبكرة نذكر ما قام به الأنثروبولوجي الأمريكي فرانز بواس (Boas, 1858-1942) والذي كان متخصصاً في الأصل في دراسات الطبيعة والجغرافيا – بدراسة قبائل البافين Bffin في كولومبيا البريطانية، ثم بدأت بعدها بقليل رحلات العلماء البريطانيين والتي كان من أشهرها تلك الرحلة أو البعثة التي نظمتها جامعة كمبردج البريطانية خلال عامي ١٨٩٨ و ١٨٩٩ لدراسة منطقة توريس Tarres Straits في المحيط الهادي بشرق أسيا. وبينما كان الإشراف الروحي علي تلك الرحلة لسير جيمس جورج فريزر (G. Frazer, 1851-1941) فإن الذي تولي الإعداد لها والإشراف الفعلي وقيادتها هو البريطاني الفريد كورت هادون (Alfred Cort Haddon, 1855-1940) العالم المتخصص في الحيوانات البحرية، وضمت بعض العلماء من بينهم ريفرز، وماكدوجال ومايرز وسليجمان وغيرهم[٣].

ولاشك أن هذه الرحلة إعتبرت نقطة تحول في تاريخ الانثروبولوجيا البريطانية بوجه خاص. وفي الأنثروبولوجيا علي إطلاقها بوجه عام. وأن من النتائج المبكرة لتلك الرحلة توفر أمرين متلازمين هما:

الأول: رغم أن العلماء الذين شاركوا في تلك البعثة لم تكن تخصصاتهم الاكاديمية والعملية ذات إتصال وثيق ومباشر بدراسة علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) حيث كان هادون عالماً للأحياء المائية، وريفرز في علم النفس، وسليجمان في علم الامراض "الباثولوجيا"، إلا أن نتائج تلك الرحلة أسفرت عن ظهور الانثروبولوجيا كعلم متخصص يحتاج إلي تفرغ كامل ومعايشة مستمرة من أجل الفهم الأعمق.

الثاني: برهنت الرحلة في أهم نتائجها علي أن الخبرة الحقلية والمعايشة مع الأهالي في المجتمعات والثقافات المدروسة إنما تمثل عناصر جوهرية في إعداد وتدريب وتكوين الطلاب والدارسين للأنثروبولوجيا.

العلوم الاجتماعية والمنهج العلمي

قبل السير في مجال المنهج Method وتفرعاته المختلفة، يتبادر إلى الذهن تساؤل هام قديم حديث متجدد باستمرار، هل ينظر إلى العلوم الاجتماعية المختصة بدراسة الإنسان والمجتمع على أنها تمثل "علماً" ؟ وهل لها أن تقترب في مستوياتها الموضوعية والمنهجية ونتائجها إلى مصاف درجات العلوم التطبيقية (العلمية) في الكيمياء والفيزياء وغيرها ؟

يأتي هذا الطرح للتساؤل أو التساؤلات متماشيا مع صعوبة تعريف العلم Science في ذاته حيث اختلفت حول مفهومه وتصوره ومدخله، وأهميته الكثير من الآراء والمدارس الفكرية، فصار هناك خلطاً منطقياً Logically في معالجة العلم كمفهوم وكمحرك للبحث. كمفهوم للعلم في ذاته وعموميته وكمحرك للبحث فى أي مجال أو فرع بحثي أو نسق معرفي علمي Scientific System أي تخصص فرعي، ولكن هل يستطيع الباحث في أي فرع من فروع المعرفة أن يفصل بين العلم وبين ما يقوم به في مجال تخصصه ؟ .. تلك قضية فلسفية في إطار عام لفلسفة العلم[٤] لا تنتهي.

فالفصل بين الفكرتين أو الرغبة في الفصل من جانب البعض قد يكون نوعاً من "الوهم" أو درباً من دروب المستحيل. فمفهوم العلم يشمل العلوم الطبيعية والبيولوجية وعلم

النفس والعلوم الاجتماعية ... في الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع والخدمة الاجتماعية والإدارة والاقتصاد والسياسة لا لشيء سوى أنها تختص بدراسة موضوعات ذات صفة حقلية أو ميدانية Field Studies أو ما يطلق عليها أحياناً الدراسة الإمبيريقية (أي العملية القابلة نتائجها للتطبيق).

ومن المصادفات المنهجية في هذا الشأن أن بريثويت Brathwaite يستبعد الفلسفة والمنطق الرياضي، والرياضيات البحتة، والتاريخ من "العلوم" وحجته في ذلك أنها مجالات دراسية أو بحثية غير تطبيقية أي أنها غير "إمبيريقية". وهنا يأتي السؤال الملح الإجابة عليه ... ومؤداه هل تعتبر الدراسات في مجالات الإنسان و المجتمع علماً ؟ ... أو علوماً ؟

الإجابة بالطريق المباشر والمختصر ... طالما أن هذه العلوم بشتى تفرعاتها تتعامل مع الإنسان ككائن فعال Active ونشيط، ومنفعل Passive مع الأحداث المحيطة به، ويترتب على الفعل والانفعال استجابة ورد فعل، ومادام الذي يقوم بذلك هو الإنسان كتصور كلي في عمومه يندرج تحته أفراد لا نهائية العدد عبر المكان والزمان، فإننا نتوقع اختلافا في الاستجابة أو الاستجابات من فرد إلى آخر، ومن جماعة إلى أخرى، ويترتب عليها صعوبة وضع قانون عام واحد في أي من الفروع البحثية أو المعرفية لدراسة وفهم الإنسان والمجتمع، وبناء عليه تندرج تلك التخصصات في العلوم الاجتماعية تحت مفهوم أو مفاهيم العلم والأنساق العلمية المعرفية المختلفة، لأنه يصعب التعميم فيما بينها موضوعياً ومنهجياً، وطالما أن هناك اختلافاً قائماً، فهي تظل في فلكها وأفلاكها البحثية تطبق الملاحظات والتجارب التي يمكن تكرارها في أي زمان ومكان حتى تصل إلى فهم واضح لطبيعة حياة الإنسان وثقافته، فضلاً عن تفهم قضاياه ومشكلاته من زوايا مختلفة.

فالعلم في نظر الغالبية من العلماء هو ما ينتهي إلى التوصل لمعرفة موضوعية حول قضايا بحثية استخدم في دراستها "منهجاً" علمياً وفقاً لطبيعتها وتفردها، وإن كانت علوم المجتمع تميل إلى التواصل فيما بينها بحثاً عن التكامل المنهجي.

العلوم الاجتماعية والتكامل المنهجي

في البداية ماذا تعني كلمة منهج Method ؟ ... تندرج كلمة منهج ضمن منظومة بحثية شغلت أذهان علماء الفكر الفلسفي والعلمي منذ قرون طويلة وجاءت تحت مفهوم ما

يعرف بالبحث في مجال المنطقية أو الميثودولوجية Methodology فمنذ الفيلسوف الإغريقي أرسطو ... سعى إلي تحديد ما يعرف بالمنهج الاستقرائي Inductive Method والمنهج الاستنباطي Deductive Method حيث قسم أرسطو العلوم إلي علوم نظرية The Theoretical Sciences وأخرى علوم امبيريقية أو عملية Practical Science وهي محاولات مبكرة من جانب أرسطو وضعت في إطار التقسيم الإبستمولوجي (المعرفي) والذي نهضت على أساسه حركة الترجمة وتطور العلم والمنطق بين الحضارتين الإغريقية والعربية الإسلامية نتج عنها ما يسمى بالمنهج التجريبي Experimental Method وتطبيقاته على القضايا البحثية في ضوء المشاهدات والملاحظة، والتجريب والمقارنة واستخلاص النتائج بفضل باحث متدرب كفء قادر على التجريب أو ما يطلق عليه ... مجرب Experimental.

عود إلى تعريف "المنهج" فهو بحث في العمليات العقلية قد تؤدى إلى الصواب والخطأ، كما قد يؤدي استخدامه والاستعانة به في عمليات البحث العلمي الاستقرائي وصياغة الفروض، وصياغة النتائج إلى الصواب والخطأ أيضاً.

فالمنهج هو "مذهب العقل" القابل للجدل والنقاش وفق شروط معرفية مشروعة من خلال سياقات ومستويات فكرية مختلفة لا تخرج عن المبادئ العامة الموجهة للاستقصاء أو الاستقراء العلمي. والتي لا يجب الخلط بينها وبين النظرية الموجهة للبحث أو الدراسة(٥).

هذا المدخل – الموجز – المنهجي جعل العلوم الاجتماعية تسعى إلى صياغة "منهجية" خاصة بها، وهو أمر طبيعي في ضوء تقدمها ورقيها المستمر، فنمو العلوم الاجتماعية، وتفرعها، وتنوعها، وتعددها .. هذا دليل على نجاحها وليس تأخرها – كما يدعي البعض – وهنا يجب أن تبحث لنفسها عن "منهجية" خاصة بها تتفق مع طبيعة أبحاثها ودراساتها. ومن المعروف – حتى للمبتدئين – في مجالات البحث في العلوم الاجتماعية وتخصصاتها المختلفة، بأن هناك مجموعة رئيسة من المناهج تمثل القاسم المشترك في الاستعانة بها بين الباحثين، ومن تلك المناهج المنهج التاريخي Historical Method والمنهج الوصفي Descriptive Method والمنهج المقارن Comparative Method والمنهج الإحصائي Statistical Method والمناهج الكمية Quantitative Method والمنهج التحليلي Analysis Method ودراسة الحالة Case Study وتأتي استخداماتها في البحث العلمي الاجتماعي بحسب الموضوع ورؤية الباحث وقدرته على التطبيق المنهجي فإذا كانت العلوم الاجتماعية بشتى تخصصاتها قد

التقت عند الموضوع (ظواهر المجتمع ومنشئها – الإنسان) إلا أنها تختلف منهجياً فيما بينها في تناول درجة أو درجات التفاعل Interaction أو الممارسات التي يقوم بها الإنسان.

فما يؤسس من تلك المناهج لدراسات علم الاجتماع أو الاقتصاد أو السياسة أو التربية قد لا يؤسس بالضرورة لدراسة الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) بشتى فروعه ومجالاته، أو الخدمة الاجتماعية بشتى فروعها ومجالاتها وميادينها التطبيقية المختلفة. وهذه ليست درجات من النقص بل تزيد من قيمة العلم والتخصص وتزيد من تنافسه بقصد الارتقاء والتجويد في تناول ظواهر المجتمع وسلوك الإنسان.

البحث العلمي والتطور المعرفي

البحث العلمي في حياتنا العامة ليس بالمعضلة الكبيرة الفضفاضة، التي تتطلب تجهيزات وإعدادات وباحثين ومعامل وأجهزة وإمكانيات مادية، وبشرية وتسويقية وعمليات إنتاج حتى يمكن أن تحل المشكلات التي تواجه الإنسان في حياته. فالبحث Research في أبسط معانيه هو عملية أو عمليات تقصي وفحص دقيق للوصول إلى حقائق أو قواعد عامة وتطبيقاتها لحل مشكلة معينة.

فبناء مسكن الإنسان عبر العصور لا يخلو من الخبرة والتراكم البحثي (العلمي) منذ السكن فوق الأشجار والكهوف الصخرية والجبلية والخيام، واستخدام الطين والرمل والحجارة والاسمنت والحديد وصولاً إلى البيوت أو المساكن الزجاجية، فهي كلها خبرات خضعت لتسجيل نشاط الإنسان في حل مشكلة معينة. وهو ما ينطبق على تطور حالة الإنسان والسلوك الإنساني في التعامل مع المأكل والمشرب والطعام والعادات الغذائية، وأيضاً في تطور حالة الأزياء وما يرتديه الإنسان من ملابس ساترة للجسد وواقية له من البرد والحر والعنف والقتل ... الخ.

وهنا يكون "البحث" عملية فحص دقيق ومحايد وغير متحيز لجماعة أو مشكلة أو قضية يصاغ البرهان أو الحل أو التوصيات لصالحها. فغالباً ما يتجدد أسلوب ونشاط البحث العلمي في ضوء المعرفة الناجحة والمكتسبة منه، وهنا تقاس درجات العلم وأهميته من النشاط البسيط إلى النشاط الأكثر تعقيداً، وإن كان كل نشاط من ذلك يحتاج إلى مجهود وإجراءات بدءً من التخطيط للبحث، وتصور تنفيذه في جمع المعلومات والبيانات الوصفية،

واستخدام المنهجية الملائمة، وعرض التحليلات والتفسيرات، ومن ثم عرض النتائج والحقائق والتوصيات، وإيجاد الصيغ الفلسفية أو النظرية الملائمة للربط فيما بينها وصولاً إلى التجريد والتعميم.. وربما يصل الحال إلى صياغة فروض أو نظريات جديدة مستحدثة.

بهذا التصور يصبح "البحث" مسلكاً تعليمياً ينصب بكافة دروبه ومظاهره داخل إطار ما يسمى "التواصل العلمي" الذي هدفه في الأساس اكتساب المعرفة وصياغتها وتسجيلها، وعليه يصبح البحث العلمي واحداً ضمن ثلاثة أضلع رئيسية هي: التعلم والبحث والتواصل العلمي داخل أنشطة السلوك الإنساني.

وهنا يفرض السؤال الهام نفسه: لماذا تكون هناك مجتمعات وشعوب لديها خطط وقدر من التعلم والبحث والتواصل العلمي؟ بينما هناك شعوب أخرى كما لو كانت تحرث – بمجهوداتها – في البحر!! وللإجابة عن هذا السؤال نرى أن البحث العلمي وهو مناط الحديث يكون نجاح أدائه مرهوناً بأمور وقضايا ومقومات عدة منها:

١- مدى ما يتمتع به البناء الاجتماعي والثقافي للمجتمع المتطلع إلى التقدم في إجراء البحوث العلمية وهل ستتوافق قيم وعادات وتقاليد وأعراف ذلك المجتمع وبنيته الاجتماعية والثقافية والعقائدية مع سياسات البحث العلمي ونتائجه أم لا ؟.

٢- يحتاج البحث العلمي إلى "الحرية" في الأداء والممارسة وعدم وضع القيود أو الضوابط أو العراقيل أمامه، فقد تكون تلك العراقيل "بيروقراطية" التوجه في عدم اليسر في الحصول على المعلومات اللازمة للبحث. ومنها الكثير مثل البحوث التي تقترب من الدراسات الاستراتيجية والعسكرية للدول نزولاً إلى ما يخص السياسة والاقتصاد والأمن القومي والاجتماعي وإن كانت كلها في الآونة الأخيرة قد تحولت إلى عراقيل "واهية"، لاسيما في عصر المعلوماتية واختراق الحواجز الاجتماعية والثقافية للشعوب والدول بواسطة الكترونيات وأدوات وآليات للتواصل الاجتماعي أكثر يسراً وأقل تكلفة في المال والوقت.

٣- طالما أن البحث العلمي هو نشاط متجذر في الارتباط بالسلوك الإنساني فيصبح البحث العلمي الاجتماعي والأنثروبولوجي ذو صلة وثيقة بالعرقيات والاثنيات والمكانات الاجتماعية وطبقيتها، فضلاً عن الرؤى الحزبية والمذهبية والطائفية ومدى حجم المشكلات أو القضايا التي يراد بحثها ... وهنا – في مجال البحوث الإنسانية –

قد لا تتحقق درجة أو درجات الموضوعية والحيادية كما هي متوافرة في بحوث العلوم الطبيعية. وتلك مشكلة رغم بساطتها إلا أنها تمثل عائقاً هاماً في الوصول إلى نتائج عامة تصلح لكافة المجتمعات الإنسانية. وهو الأمر الذي سيجعل العلوم الاجتماعية والأنثروبولوجية والإنسانية بوجه عام مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بطبيعة المجتمعات المحلية Local Communities محل الدراسة والبحث.

٤- التأهيل العلمي للباحثين ومدى كفاءتهم العلمية والعملية تأهيلاً وتدريباً وخبرة وتلك قضية معقدة ترتبط بالنظام التعليمي والتواصل العلمي وأسلوب التعليم وإمكانياته البشرية وقدرات صانعيه في الممارسة والأداء واتخاذ القرار. فضلاً عن مدى توفر قدرات وطاقات الإبداع الخلاق والابتكار المنظم والمنضبط القائم أساساً على التراكم المعرفي لمعطيات البحث العلمي في ضوء التواصل الرشيد. بعيداً عن فرض باحثين غير جادين تلعب الوساطات وتبادل الخدمات أساساً في تواجدهم وليس مهاراتهم وكفاءاتهم. ناهيك عما إذا كانت سلطات الدولة ذاتها غير جادة في تشجيع ألوان الابتكار والاختراع وأسس الابداع!![٦].

٥- يحتاج البحث العلمي إلى إمكانيات مادية هائلة من مباني ومكتبات ومعامل ووسائل انتقال فضلاً عن المواد الخام اللازمة للبحث العلمي في مجال البحوث العلمية للعلوم الطبيعية وغير ذلك من روافد الانفاق المادي على مراحل البحث.

أ- النظرية العلمية :

تعرف النظرية العلمية The Scientific Theory في أبسط معانيها بأنها نسق معقد من المعرفة بواسطته يمكن تفسير الجوانب المختلفة للواقع الطبيعي أو الإنساني بواسطة صياغة عقلية.

ويُنظر إلي النظرية بأنها نسق معقد علي غرار ما جاء بالنظريات الطبيعية (الفيزيائية) في المكونات الصورية (المجردة) لعناصر الرياضيات والرموز والقواعد المنطقية، أو ما جاء في المقولات والقوانين العامة.

وعادة ما يلجأ الباحثون إلي صياغة تعريف إجرائي للنظرية عند قيامهم بالبحث العلمي، وذلك من أجل تحقيق مطلب بحثي أو دراسي قد يخص الباحث أو الباحثين، مراعياً أن النظرية – حتي وإن كانت إجرائية – فإنها تشير إلي العلاقات القائمة بين المتغيرات.

والنظرية العلمية كما يراها المفكر الاجتماعي الإيطالي فلفريدو باريتو "Pareto" فأنها تتألف من عناصر ومناقشات منطقية، وطاقات وظيفية وإمكانات للتحليل والتفسير والمقارنة ورغم أهمية النظرية العلمية في توجيه البحث العلمي إلا أنها تتميز بشروط غاية في الدقة وهي: التميز أو التفرد – الشمول لعدد من الظاهرات – الايجاز في بيان الهدف – القدرة على الصياغة المستقبلية والتنبؤ الصحيح(٧).

إضافة إلى أن النظرية العلمية – لا سيما في البحوث الاجتماعية – تحدد الاتجاه السليم لفرع العلم والبحث العلمي، وذلك في ضوء الجمع الاثنوجرافي المعلوماتي والبيانات اللازمة للبحث في مراحله الأولى، والتي يتم تجريدها في مرحلة التفسير، كما تساعد النظرية في تقديم إطار عام من التنظيم والتصنيف والعلاقات الارتباطية بين عناصر الظاهرة أو القضية أو المشكلة محل الدراسة. وصولاً إلى إجلاء الحقائق وصياغة التعميمات والتنبؤات المستقبلية بمسار الواقع الاجتماعي.

ب- أنواع البحوث العلمية :

ذكرنا قبل ذلك أن البحث العلمي هو نشاط منظم من أجل كشف الحقائق لظاهرة ما أو سلوك إنساني ما اعتماداً على استخدام مناهج موضوعية تساعد على معرفة الارتباط بين حقائق الظاهرة وجزئياتها ومكونات وجودها. أي أن العلم والبحث العلمي يبدأ بالافتراض والتساؤل مروراً بالمراحل الإجرائية للتنفيذ وصولاً إلى مرحلة النتائج النهائية واستخلاص وصياغة المبادئ العامة والقوانين التفسيرية، وإضافة رصيد معرفي تراكمي إلى النظرية أو النظريات الموجهة، أو الوصول إلى صياغة نظرية جديدة يستخلصها الباحث من نتائج بحثه.

وفي الواقع تتحد البحوث العلمية من حيث أنواعها فيما يلي أهم أنماط البحوث الرئيسية:

الأول: هي البحوث العلمية الاجتماعية القائمة على المسح الاجتماعي الشامل، والهدف من إجرائها هو اكتشاف الحقائق المفسرة للظاهرات الاجتماعية، ولا يظن البعض بأن هذه البحوث والدراسات الميدانية المسحية هي مجرد حشد أو ركام من البيانات والمعلومات الاثنوجرافية حول ظاهرة ما، أو ظواهر بعينها، وإنما النتائج العلمية التفسيرية والتحليلية لتلك المعلومات والبيانات الاثنوجرافية، إنما يهدف إلى وصف وتشخيص ورسم السياسات اللازمة لمواجهة أية مشكلات أو قضايا تسهم في دفع بناء التنمية الصحيحة

لمجتمع ما، أو تساعد في توجيه وتصحيح مسار عملية أو عمليات التنمية القائمة بالفعل موضع التنفيذ في المجتمع.

الثاني: البحوث المكتبية، وهي في عمومها لا يمكن وصفها بالبحوث النظرية؛ حيث يقوم الباحث في تلك البحوث بتفسير وتحليل معلومات وبيانات اثنوجرافية اتيحت له بين يديه لم يقم الباحث بجمعها بنفسه من الميدان ولم يقم هو أو يشارك في جمعها من قبل ويطلق على هذا النوع من نمط البحوث بالنمط الثانوي، لأنه ليس بحثاً أولياً حيث يكون البحث الأولي هو من يقوم به الباحث نفسه في كافة مراحله، وعليه فإن التحليل والتفسير العلمي الذي يقوم به الباحث بوصف – أيضاً – بالتحليل الثانوي Secondary analysis للبيانات المتاحة.

ويفيد هذا النمط من البحوث عند الاستفادة من البيانات والمعلومات التي جاءت بها الفرق الكبيرة لإجراء البحوث الميدانية مثل الفرق البحثية العاملة في الإحصاءات السكانية وخصائصها وتوزيعها جغرافياً، عندئذ يستطيع الباحث أن يستفيد من تلك البيانات والمعلومات التي جمعها وتفسيرها وصياغة التقارير العلمية بشأنها، وبما يساعد متخذي القرار في رسم سياسات التنمية المحلية والتنمية المجتمعية الشاملة.

الثالث: ويطلق عليها البحث من أجل البحث، أي العلم من أجل العلم وتنميته، وفي وصف آخر توصف بأنها البحوث البحتة Pure Research وهذا النوع من البحوث الاجتماعية والأنثروبولوجية سواء اعتمد الباحث فيها على دراساته الحقلية الميدانية هو شخصياً، أو اعتمد فيها على بيانات ومعلومات سابقة الجمع دون أن يشارك هو في جمعها، وإنما لديه القدرة النظرية والمنهجية والفلسفية على تصنيف وتحليل وتفسير تلك المعلومات ومقارنة نتائجها مع نتائج لدراسات وبحوث سابقة، فهو بذلك يصل بمستوى ما جاء به من نتائج إلى مرحلة عليا من "التجريد" والصياغة "الفلسفية" النظرية إذا ما قورنت بنتائج النمطين السابقين من البحث الاجتماعي.

هذا النوع من البحوث يتطلب باحثين متميزين لديهم قدراً كبيراً من المعارف العلمية والبحثية تمكنهم من صياغة القضايا النظرية المجردة وتفسيرها وبيان أسباب تواجدها، وبهذا يتمكن الباحثون من صياغة ما يسمى بالقوانين العلمية التي لها صفة الثبات النسبي قبل أن تختبر أو تجد نفسها في دائرة التقييم والانتقاد سواء بالهدم أو الإضافة إلى مخزون ورصيد المعرفة العلمية[٨].

ومن المعروف أن الأمم والشعوب التي تقدمت وقطعت شوطاً كبيراً في مجالات وميادين التنمية عندها، قد اتخذت من العلم والبحوث العلمية مرشداً أساسياً لها لتبني ما يواجهها من مشكلات وحلها بفضل نتائج تلك البحوث العلمية، فالعلم والبحث العلمي ليس ترفاً، وإنما هو الوسيلة الأساسية لتحقيق التقدم والرفاهية، وعلى الأفراد والجماعات والشعوب ألا تنتظر أن يأتي إليها العلم بالصدفة، وإنما أن يكون هناك تبني واضح وسياسات واضحة من أجل تقدم البحث العلمي وتشجيع الجهود التي يجب أن يبذلها الباحثون لإكتساب المعارف العلمية. فإذا كانت الاتجاهات العلمية وتطبيقاتها حديثة نسبياً بالقياس الزمني لوجود الإنسان على الأرض، إلا أن هناك محاولات مبكرة من جانب الإنسان لكشف الكون وأسراره، وللوقوف أمام الظواهر الكونية والإنسانية والعمل على معرفة أسباب حدوثها، وما هي النتائج الإيجابية والسلبية المترتبة على وجود مثل تلك الظاهرات.

وحين اتجه الإنسان إلى العلم وتطبيقات المنهج العلمي في دراسة الظواهر كان عليه أن يتخذ خطوات إجرائية تسهل للباحث العلمي إجراء بحوث ودراسات تتسم بالعلمية والمنهجية والمنطقية في مراحل تنفيذها، ومن تلك المراحل الأولية في البحوث العلمية ما يلي:

١- أن تكون هناك مشكلة أو قضية بحثية تثير اهتمام الباحثين والعامة من الناس فيوجه نحوها الاهتمام بأنها ظاهرة جديرة بالدراسة العلمية، إما لمعرفتها ومعرفة مقوماتها ووظائفها قبل أن تندثر (مثل دراسة عناصر ومكونات الإرث الاجتماعي والثقافي الأصيل) أو دراستها لأنها تمثل نمطاً من الظواهر المستحدثة على المجتمع وأصبح لها وجود في مكون البناء الاجتماعي والثقافي للمجتمع، ولابد من دراستها دراسة علمية منهجية، فتحديد ما سيقوم الباحث بدراسته هو من بديهيات وأولويات الخطوات الإجرائية في البحوث العلمية.

٢- القيام بجمع أكبر قدر من المعلومات والمعارف والبيانات حول ما سيقوم الباحث بدراسته سواء كانت مشكلة أم قضية أم مجتمع محلي أم ثقافة ... الخ وهذا لا يتحقق للباحث إلا عن طريق القراءة المتعمقة في التراث العلمي ذي الصلة بموضوع بحثه، سواء كانت بحوث أو كتابات كتبها آخرون سابقون، أو كانت لديه القدرة على جمع معلومات حية واقعية عن طريق الخبراء والمختصين والإخباريين Informants من أبناء المجتمع والثقافة المراد دراسة

الظاهرة أو الظواهر بداخلها. فالأنثروبولوجيون الأوائل من رواد البحث الأنثروبولوجي كانوا لا يلقون ولا يرسلون بتلاميذهم إلى ميادين البحث الميداني للدراسة المتعمقة إلا بعد الاطمئنان عليهم بأن لديهم حصيلة معرفية حول ميادين وموضوعات دراساتهم تمكنهم مستقبلاً من الاستمرار في البحث وانجازه، بل وصل البعض منهم إلى القيام بزيارات ميدانية سريعة استكشافية استطلاعية من أجل كتابة تقارير أولية يقتنع بها المشرفون الأكاديميون بأن ما جاء بها من بيانات ومعلومات اثنوجرافية ستمكن الباحثين من الاستمرار والتواصل في عملية إجراء البحث ميدانياً ونظرياً. وعليه فإن الرصيد المعرفي من البيانات والوقائع والدراسات الأولية هو بالأمر الهام والجيد في سلسلة إجراءات تنفيذ البحوث العلمية في المجالين الاجتماعي والأنثروبولوجي.

٣- التقويم المرحلي الزمني – من جانب الباحث – لما تم إنجازه وتنفيذه من خطة العمل البحثية وأن يكون ذلك بالتشاور مع المشرف الأكاديمي إن كان الباحث مبتدءاً في حقل الدراسات الميدانية والبحوث، أما إن كان الباحث خبيراً وقادراً على الاعتماد على نفسه في التمكن من تنفيذ القواعد والإجراءات اللازمة لتنفيذ خطوات البحث، فهو أيضاً في حاجة إلى المراجعة الزمنية المستمرة نحو ما وصل إليه وما نفذه من خطوات ومدى ما جاءت به تلك الخطوات من نتائج مرحلية تعين الباحث على السير قدماً في تنفيذ بحثه. وهنا يحتاج الباحث العلمي مهما كان خبيراً أو متمكناً في مجال عمله العلمي إلى الاستمرارية في البحث وعدم الانقطاع عنه، لأنه مهما أوتي من علم فهو في حاجة إلى المزيد منه، وتلك سمة هامة من سمات تواضع العلماء.

٤- الدراسة العلمية المركزة Intensive study، وتعد هذه المرحلة هي المرحلة الأساسية للدراسة الحقلية Field work study الميدانية، وهي تلك التي يعيش فيها الباحث داخل المجتمع، يقيم بداخله، يتعلم اللغة الأصلية لسكانه، يكتسب من عناصر ثقافته ما يمكنه من العيش والاندماج مع سكان المجتمع، يشاركهم في أنشطة حياتهم اليومية، ويشارك في طقوس وشعائر احتفالاتهم المجتمعية (دينية أو قومية أو مهرجانات وكرنفالات إلى غير ذلك)، وأن يكون ملماً بأسلوب الحياة اليومية Way of Life للسكان بدءً من الصباح الباكر وحتى وقت الخلود إلى النوم والراحة، وفي كل هذا يكون الباحث قادراً على تسجيل Record كل ما جمعه ويجمعه من مادة اثنوجرافية ومعلومات وبيانات خاصة بالمجتمع ولا يستهين أبداً بأية معلومات مهما صغر حجمها أو قيمتها في نظره.

٥- مرحلة كتابة التقرير العلمي حول الدراسة أو المشكلة والذي يصور فيه الباحث تصويراً دقيقاً لما وصل إليه من حقائق استطاع أن يفسرها ويحللها ويصوغها في ضوء خبرته البحثية. وقد سمي هذا التقرير في البحوث الأنثروبولوجية الأولية والأثنوجرافية بالتقرير المونوجرافي Monograph Report المرتبط بتصوير دراسة بعينها لمجتمع ما، أو جماعة ما، أو مشكلة ما، ثم يأتي بعد ذلك مراحل علمية أخرى من المقارنة Comparative مع دراسات أخرى سابقة أو متزامنة بقصد الوصول إلى استخلاص النتائج أو القوانين العلمية العامة(٩).

الأنثروبولوجيا والتميز الإثنوجرافي

ليس تميزاً يلقي بالطرح من جانب متخصص، وإنما خاصية ودوافع الانتماء إلى مجال معرفي يثبت يوماً بعد يوم أنه قادر على تفهم مسيرة حياة الإنسان على الأرض في شتى دروبها وبقاعها المكانية وأحقابها الزمنية فتلاحقنا يوماً بعد يوم مجالات جديدة (فرعية) من التخصص في مجالات الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) لدرجة أنني أشفق الآن على المبتدئين من شباب الباحثين في بعض علوم اجتماعية معينة، فأراهم يقتربون – بل ينجذبون – إلى دائرة البحث الأنثروبولوجي موضوعاً، ومنهجاً مع أنهم ينتمون في الأصل إلى تخصصات أخرى من الأولى لهم والأجدر أن يتجهوا إلى التعمق فيها بحثاً ودراسة، ولكن بريق البحث الأنثروبولوجي وقدرته على كشف الأبعاد المجتمعية والإنسانية، جعل هؤلاء في حالة جذب شديدة تجاه الموضوعات الأنثروبولوجية ومنهجيتها.

وإذا كنا ننظر إلى أهمية تكامل منهجية البحث في العلوم الاجتماعية إلا أن الأمر اللافت للنظر أن أي علم أو مجال بحث لا يرتقي إلا إذا اتجه أنصاره ومؤيدوه والمنتسبون إليه بكامل طاقاتهم لتدعيمه وتطويره والسعي إلى الارتقاء بفروعه وتخصصاته المختلفة، وإذا لم يفعل الجميع ذلك فسوف "تموت" بعض علوم معرفية، ومجالات بحثية، بعد أن تتوقف عنها قوة حركة الدفع الذاتي التي تلقتها من رواد العلم والتخصص عند نشأته.

أما ما يميز الأنثروبولوجيا منهجياً فقد ارتبط منهجها بموضوعها عند نشأتها وأصبح الموضوع والمنهج وجهين لعملة واحدة يعززهما قاسم رئيسي مشترك هو الباحث الأنثروبولوجي الذي يندمج ويعيش الموضوع والمنهج في ظل "دراسة حقلية Field Study"

معاشة ميدانياً داخل مجتمع البحث أياً كانت درجته من البساطة والتعقيد. فالدراسة الحقلية أو الميدانية في مجالات الأنثروبولوجيا هي دراسة الشعوب أو الناس وثقافاتهم في أماكن إقامتهم الطبيعية، مما يتطلب من الباحث الأنثروبولوجي الإقامة في مجتمع البحث أطول فترة ممكنة لملاحظة Observe سلوك الناس ومشاركتهم في مختلف نواحي النشاط، وفهم نظرتهم إلى ذاتهم، وفهم نظرتهم إلى الآخرين حتى يتمكن الباحث الأنثروبولوجي في ضوء دراسته من تحقيق النظرة الكلية الشاملة التي يجب أن يلم بها الباحث في العلوم الاجتماعية.

ولما كانت مقومات ودعائم عديدة قد تأسست مبكراً في مجالات البحث الأنثروبولوجي في ضوء النشأة التي ظهرت بها فروع العلم الأنثروبولوجي حيث ارتبطت بتوجه بعض الباحثين الأوائل – حتى ولو كانوا من تخصصات أكاديمية غير أنثروبولوجية – إلى تفهم "الإنسان" كجوهر لموضوع البحث الأنثروبولوجي والانتقال إليه حيث مكان إقامته الطبيعي، وحيث يعيش بأساليبه السلوكية وأنماطه الثقافية الخاصة به، فكان لا بد من الدراسة الحقلية والمعايشة المستمرة، والملاحظة الدقيقة المتأنية، والاندماج في حياة المجتمع المدروس حتى "الاستغراق" ليصبح الباحث الأنثروبولوجي جزءً من المجتمع الذي يدرسه حتى يتمكن من فهم فكر الإنسان المدروس ومشاعره وعواطفه ومعتقداته وكان هذا – من جانب الباحثين الحقليين – رد الفعل الطبيعي بعد أن اتسمت البدايات الأولى للأنثروبولوجيا بسيادة التصورات و الآراء حول المساق التطوري المفترض للثقافة الإنسانية والأسباب التي أدت إلى ظهور الاختلافات بين المجتمعات. وقد تم رواج مثل هذه الأفكار من خلال الدراسة والتنظير المكتبي، إذ أن قلة من المنظرين تسنى لهم آنذاك معرفة أولية مباشرة لشعوب أخرى غير شعوبهم مما دفع بالعلماء في تلك الفترة ليعتمدوا على كتابات وتقارير الرحالة والصحفيين والمبشرين، وبالرغم من أن هذه الكتابات مثلت منطلقات أولية للتعرف على الثقافات والشعوب إلا إنها غالباً ما اتصفت بالتحيز أو التبسيط وتشويه الواقع. ولهذا سرعان ما تبين إنه إذا ما أرادت الأنثروبولوجيا أن تبنى على أسس نظرية صلبة فإن العلماء بحاجة إلى أن يحصلوا على وصف دقيق وكامل للثقافات في كل جزء من أجزاء العالم، وبهذا فقد ظهر الاعتماد على الدراسة الحقلية لتحقيق هذا الهدف الطموح، وحتى يتمكن رواد الأنثروبولوجيا الأوائل من ترسيخ علمهم على أسس ومنطلقات مبنية على الواقع الثقافي لتجارب الإنسان أينما وجد(١٠).

وأهم ما يميز الدراسات الأنثروبولوجية الحقلية أو الميدانية هو الحصول على معلومات إثنوجرافية Ethnographic Data للشعوب والثقافات المختلفة. فالإثنوجرافيا – وهي ما تتميز بها الأنثروبولوجيا ميدانيا ومنهجيا – وهي عبارة عن تسجيل وصفي دقيق للشعوب والثقافات الإنسانية في شتى أنشطة حياتها، وهي معلومات غير تفسيرية في المقام الأول، وإنما تؤخذ على طبيعتها وهيئتها في الوصف فعلاً وقولاً وعملاً ... وقد نشأت الإثنوجرافيا سواء لدى الرحالة من الأنثروبولوجيين الأوروبيين والأمريكيين الأوائل أو لدى الرحالة الأوائل من علماء المسلمين، نشأت من خلال كتابات الرحالة القدامى الذين كانوا يسجلون كل ما يشاهدون عن الجماعات المختلفة أو المتخلفة حضارياً !! وإليهم يرجع الفضل في تحقيق البدايات المبكرة للدراسات الإثنوجرافية.

وبهذا التوجه نحو تتبع البدايات الأولى لنشأة "المنهج الإثنوجرافي" المتميز في الدراسات الأنثروبولوجية نجد أنه لايعود فقط إلى مجهودات الأنثروبولوجيين الأوروبيين الأوائل فقط، وإنما تمتد جذوره التاريخية إلى مؤرخين يونانيين مثل "هيرودوت" الذي اتخذ من "الإثنوجرافيا" مجالاً منهجياً لفهم الشعوب وتاريخها. إلى جانب اليونانيين القدامى، والرحالة الأنثروبولوجيين في العصر الحديث، نجد المساهمات المبكرة للرحالة العرب والمسلمين لها أهميتها أمثال المسعودي، والمقددسي، والإدريسي، وأبن حوقل، وأبن فضلان، وأبن بطوطة، وأبن خلدون ... فقد كان لهؤلاء الرحالة والمفكرين العرب دور كبير في جمع المادة الإثنوجرافية (الوصفية) عن البلاد والممالك والأقاليم التي زاروها، وأقاموا فيها، وكتبوا عنها، ووصفوا عاداتها وتقاليدها، ووصف بيئاتها ومدنها وأنماط ثقافتها.

الباحث الأنثروبولوجي

إذا كانت هناك شروط معينة يتطلب توفرها لنجاح الدراسات الحقلية التي يقوم بها الباحث الأنثروبولوجي في تنفيذ البحوث بمختلف أنواعها، فلاشك أن هذا النجاح لهذا الباحث إنما يتوقف على مدى ما تلقاه من تدريب حقلي أثناء فترة إعداده وتعلمه لقواعد البحث الانثروبولوجي سواء ما يتصل منها بطبيعة المجتمعات والظواهر المدروسة أو ما يتصل منها بالمتدرب نفسه ومدى استعداده وقدراته وإلمامه بأدوات التدريب وفلسفته، وأهدافه والتي تسمح له بالمشاركة في إجراء العديد من الدراسات الحقلية في عدد متباين من

المجتمعات المحلية وثقافتها المتمايزة، وقد تتسم تلك الدراسات في بادئ الأمر بالسرعة وقصر مدة الإقامة البحثية، إلا أنها تكون خطوة تمهيدية لما يأتي بعدها من دراسات مركزة وشاملة.

ويمكن القول أنه مهما طالت مدة البحث فإن الباحث الانثروبولوجي لن يستطيع أن يقدم صورة دقيقة مفصلة عن المجتمع ما لم يضع نفسه في موضع يستطيع معه أن يوطد علاقات الصداقة والألفة مع أهالي ذلك المجتمع، وحتى يتمكن من متابعة حياة الجماعة ونشاطها اليومي داخل المجتمع(١١).

وعلى أية حال فإن البحث العلمي Scientific research مفهوم معرفي قد يتضمن اعتقادا لدى البعض انه لا يستخدم إلا في نطاق المستويات والمجالات العلمية عالية القيمة والكفاءة، ومن هنا يأتي إضفاء الخصوصية كسمة مميزة لمفهوم البحث، فضلاً عن ارتباطه الوثيق بجماعه خاصة من صفوة أهل العلم والبحث، بينما يرى البعض الآخر أن مفهوم البحث العلمي أبسط ما يكون عن مستوى الاعتقاد السابق، لأن عملية البحث في نظرهم إنما تتم في أبسط صورها في حياتنا اليومية وبمظاهر وأشكال متنوعة، وأن المواقف المتعددة التي تقابل الإنسان تضعه في موقف المجابهة اليومية مع ما يواجهه من مشكلات، ومن ثم التوصل إلى حلول سليمة بشأنها(١٢).

وقد نظر فلاسفة اليونان إلى طبيعة الإنسان ومصيره كعضو في المجتمع من خلال مواجهتهم إلى طبيعة الكون، واعتبروا أن جوهر النظرية الاجتماعية يقوم لديهم على أساس علاقة عضويه بين البناء والوظيفة، وهي علاقة تستند إلى مجموعه من المعايير والقضايا منها:

١- نظرتهم إلى الكون على انه نسق منظم يتكون من أجزاء مرتبة حسب طبيعة التدرج الوظيفي لها، وأن الكل هو أكبر من الأجزاء المكونة له، وتتحدد وظيفة النسق على مدى الأفعال الخاصة التي تقوم بها الأجزاء.
٢- تمثل وظيفة النسق حالة من التناغم أو التوازن من خلال أداء كل جزء لدوره في أقصى طاقته وقدرته مما يتطلب أداء واستمرارية التدرج الطبيعي للأجزاء داخل النسق دون الإخلال بسمة التوازن.
٣- كل تغير قد يحدث داخل النسق يؤدي إلى تغير في العلاقات، والتي تعمل بدورها تلقائياً بكل طاقتها للوصول إلى حالة التوازن(١٣).

ومن الأمثلة التي جسدت اهتمام اليونانيين بالمواضيع الأنثروبولوجيه في منظومة الفكر اليوناني ما قام به هيرودوت كملاحظ Observer جيد ومدون بارع للعديد من الملاحظات التي قام بتسجيلها، والتي اشتملت على عديد من جوانب أنشطة الإنسان في المأثورات والحكم، والتعاقدات الاقتصادية والأعراف، ووصفه للعادات والمعتقدات، والملابس والأسلحة الحربية، وشعائر الدين والمحرمات، وطرق دفن وبناء المزارات والهياكل الدينية، وإقامة السكان في المدن، وعلاقة الإنسان بالأرض وإنتاجيتها، والقوارب وأنواعها، وغيرها من المظاهر الثقافية والاجتماعية، هذا وقد وضعت تلك الاهتمامات هيرودوت في زمرة الأثنولوجيين المبكرين. لاسيما وانه كان ينتقي أقوال الإخباريين، ويعمل على تخليصها من العناصر الذاتية ، وقد توحي النظرة الأولى لتراث الفكر اليوناني أن العلماء اليونانيين لم يهتموا بصورة واضحة بالدراسات الأنثروبولوجية، لكن من الحق القول بأنهم اهتموا بدراسة الإنسان ضمن اهتمامهم بدراسة الكون وظواهره المختلفة، وهي تلك الاهتمامات المنهجية والمنطقية التي نهضت عليها – فيما بعد – الدراسات الإنسانية بما في ذلك علم دراسة الإنسان.

وفي القرن الخامس عشر الميلادي ومع ظهور عصر النهضة الأوربية جاءت حركة الرحالة والمبشرين وتبلور جل اهتمامهم بالمجتمعات والثقافات غير الأوروبية، فتراكمت معلومات أثنوجرافية Ethnographic Data كثيرة عن شعوب ومجتمعات متباينة أمتزج فيها طابع الوصف Description وحكايات كبار السن من الإخباريين Informants المعبرة عما تتميز به تلك الشعوب من تراث شعبي Folk Heredity وهي المعلومات التي أصبحت ركيزة أساسية انطلقت منها دراسات علم الإنسان فيما بعد.

والى جانب الرحالة الأوروبيين جاءت إسهامات الرحالة العرب[١٤] في وصف الشعوب والمجتمعات التي قاموا بزيارتها، ومن هؤلاء الرحالة أبن بطوطة والمسعودي، وإن كان من أبرز الكتاب العرب في هذا المجال ما أسهم به عبد الرحمن بن خلدون وإضافاته الاثنوجرافية حول العلاقات الحضارية والسياسية والاقتصادية بين البداوة والحضر، فضلاً عن تحليلاته وتفسيراته المنهجية والتي اهتدت بها – وما تزال – الكثير من الدراسات الاجتماعية والانثروبولوجية.

وفي سياق الرحلات الاستكشافية المبكرة نذكر ما قام به الانثروبولوجي الأمريكي فانز بواس Boas – (١٨٥٨–١٩٤٢) والذي كان متخصصاً في الأصل في دراسات الطبيعة والجغرافيا – بدراسة قبائل البافين Bffin في كولومبيا البريطانية ثم بدأت بعدها بقليل رحلات

العلماء البريطانيين والتي كان من أشهرها تلك الرحلة أو البعثة التي نظمتها جامعة كمبريدج البريطانية خلال عامي ١٨٩٨ و ١٨٩٩ لدراسة منطقة توريس Torres Straits في المحيط الهادي بشرق آسيا وبينما كان الإشراف الروحي على تلك الرحلة لسير جيمس جورج فريزر G.Frazer (١٨٥١-١٩٤١) فإن الذي تولى الإعداد لها والإشراف الفعلي وقيادتها هو البريطاني الفريد كورت هادون Alfred Cort Haddon (١٨٥٥-١٩٤٠) العالم المتخصص في الحيوانات البحرية، وضمت بعض العلماء من بينهم ريفرز، وماكدوجال، ومايرز، وسلجمان، وغيرهم(١٥).

ولاشك أن هذه الرحلة أعتبرت نقطة تحول في تاريخ الأنثروبولوجيا البريطانية بوجه خاص، والأنثروبولوجيا على إطلاقها بوجه عام، وأن من النتائج البارزة لتلك الرحلة توافر أمرين متلازمين هما:

الأول: رغم أن العلماء الذين شاركوا في تلك البعثة لم تكن تخصصاتهم الأكاديمية والعلمية ذات اتصال وثيق ومباشر بدراسة علم الإنسان (الانثروبولوجيا) حيث كان هادون عالماً للأحياء المائية، وريفرز في علم النفس وسليجمان في علم الأمراض (الباثولوجيا) ألا أن نتائج تلك الرحلة أسفرت عن ظهور الأنثروبولوجيا كعلم متخصص يحتاج إلى تفرغ كامل ومعايشة مستمرة من أجل الفهم الأعمق.

الثاني: برهنت الرحلة في أهم نتائجها على أن الخبرة الحقلية والمعايشة مع الأهالي في المجتمعات والثقافات المدروسة إنما تمثل عناصر جوهرية في إعداد وتدريب وتكوين الطلاب والدارسين للأنثروبولوجيا.

تشير الأنثربولوجيا Ethnography في أبسط معانيها للدارس المبتدئ في الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) بأنها الدراسة الوصفية لثقافات الشعوب كما تبدو من تحليل الوثائق التاريخية، وملاحظة، ووصف وتسجيل المادة والمعلومات من الميدان أثناء الدراسة الحقلية، ويراها بعض العلماء بأنها الدراسة الوصفية للثقافات دون إلزام بتحليل المادة الإثنوجرافية وتفسيرها، بينما يرى البعض الأخر من العلماء أن الإثنوجرافيا قد تكون مرادفًا في بعض الأحيان لمصطلح الإثنولوجيا Ethnology التي هي علم دراسة الإنسان ككائن ثقافي، من خلال تاريخ الشعوب وثقافاتها ومقارنه الثقافات، بما في ذلك دراسة السلالات البشرية Races، وهو

الأمر الذي جعل الإثنولوجيا والاثنوجرافيا مجالين هامين لدراسة الثقافة في بعديها المادي والمعنوي(١٦).

ويرتبط بجمع البيانات والمعلومات مدى قدره الباحث على تحديد وتعيين واختيار مصادر جمع بيانات بحثه، وفي تلك الأثناء لابد أن يراعي الباحث مجموعة من الاعتبارات منها طبيعة المجتمع المدروس، ومدى حساسية الموضوعات المطروحة للبحث، وتوعية وثقافة المبحوثين واختيار الأداة أو الأدوات البحثية ومدى تلازمها مع مصدر أو مصادر جمع المعلومات.

ويميز الباحث بين مصدرين أساسيين لجمع البيانات والمعلومات وهما:

أولاً: المصادر المكتبية، والتي تتضمن بيانات جاهزة وسابقة الإعداد يلم بها الباحث من خلال القراءة والإطلاع على كل ما كتب ودون وسجل بأية صورة من صور التسجيل، والأرشفة وهي غالباً ما تكون خلاصات لدراسات وبحوث سابقة متضمنة بيانات ومعلومات ودلالات إحصائية رسمية، ووثائق وسجلات تاريخية مكتوبة.

ثانياً: مصادر الجمع الميداني، يشمل نزول الباحث الاجتماعي عامة وأسبابها وغاياتها، ثم المرحلة الميتافيزيقية Metaphysical وهي التي أتسمت بالتأمل العقلي، والوصول إلى معانٍ ودلالات جوهر الأشياء، وذلك في ضوء أساس سليم للمعرفة يستند إلى الماهيات الكبرى، ثم جاءت المرحلة الثالثة وهي مرحلة الوضعية Positivism، والتي اتجه فيها الإنسان إلى التمرد على الافتراضات والماهيات اللاهوتية والميتافيزيقية، بل راح يبحث الإنسان عن الأسباب الحقيقية لوقوع الأحداث والظواهر الواقعية(١٧).

وقبل الشروع في تعيين بعض المصادر الميدانية لابد للباحث الانثروبولوجي أن يراعي مجموعة من الاعتبارات الفلسفية والمنهجية داخل الميدان نذكر منها:

١- أن يوجه الباحث اهتمامه نحو الكل والصالح العام، بمعنى أن توجهه لابد أن يكون معنياً بدراسة البناء الاجتماعي وعموميات المعايير الثقافية أكثر من اهتمامه بالأشخاص أو الأفراد وقضاياهم الجزئية، وهي من أولى الأمور التي سيواجهها الباحث المبتدئ.

٢- أن يقدم الباحث ويعرض مهمته ورسالته البحثية بكل أمانه وصدق سواء لأعضاء المجتمع المدروس، أم ما استخلصه من بيانات ومعلومات خاصة بموضوع البحث والدراسة، ولاشك أن تقديم المعلومات والبيانات بأمانه ووضوح يُمكَن من استخلاص ما قد يساعد على تفسير الظاهرة محل الدراسة أو التنبؤ بما سوف تؤول إليه فيما بعد.

٣- أن يراعي الباحث تحديد هدف البحث بكل دقة، هذا إلى جانب تحديد نوع البحث نفسه وفلسفته التي يستند إليها أثناء الإجراء والتنفيذ، فالبحوث الاستطلاعية تقتضي مصادر للبيانات قد تختلف عن تلك التي يحتاج إليها الباحث في البحوث التجريبية أو التقويمية أو بحوث المشروعات، فمثلاً لو أراد الباحث إجراء دراسة استطلاعية حول العادات والتقاليد في منطقة محددة يمكن أن تكون مصادر بياناته مرتبطة بالتراث الشعبي والفلكلور، وأنماط السلوك الأمر الذي قد يجعله يجمع بياناته من أفراد داخل هذا المجتمع أو من كبار السن من الإخباريين Informants، أما إذا كانت الدراسة أكثر عمقاً وتدخل في نطاق التصنيف التجريبي أو المقارن فلابد من دراسة سلوك الناس في جماعتين أو مجتمعين أو ثقافتين مختلفتين ... وهكذا.

٤- من الاعتبارات التي يجب أن يراعيها الباحث الانثروبولوجي – لاسيما – المبتدئ في الدراسات الحقلية مسألة تشبع أعضاء مجتمع البحث بالبحوث السابقة، أو على الأقل زيارات التدريب الطلابي والبحثي المتكرر كل حين وآخر لأن في ذلك مسألة هامه قد تؤثر في درجة استجابة المجتمع والمبحوثين للدراسات والبحوث المستقبلية، وقد يحدث هذا في المجتمعات التي تكثر فيها الدراسات والمسوح "التجارية" مثلما حدث في مجتمعات النوبة بجنوب مصر في الستينيات وفي منطقتي مديرية التحرير وأبيس في أوائل السبعينات(١٨).

٥- أن يحرص الباحث الانثروبولوجي- منذ الوهلة الأولى أن يكون مقبولاً لدى أفراد مجتمع البحث، وعليه أن يقيم من العلاقات والصداقات – ولكن بحذر – بما يمكنه من التعرف على أكبر قدر من جوانب الحياة في هذا المجتمع وهذا لا يأتي للباحث إلا إذا كان ذكياً، لماحاً، فطناً، لديه القدرة على حسن التصرف في شتى المواقف متواضعاً في المقام الأول، لا يبدي تأففاً مما سيقابله من سلوكيات وتصرفات للغير في مجتمع دراسته، مشاركاً في كافه المناسبات المجتمعية، بل وبادياً حرصه على المشاركة وأن يكون على درجه كبيرة من الوعي النقدي، ناقداً للذات قبل الآخر.

أما عن المصادر الميدانية الأساسية في جمع المعلومات الأثنوجرافية في البحوث الانثروبولوجية فتتمثل في إيجاز في الإخباريين كمصدر هام لاسيما في المجتمعات والثقافات التي لا توجد فيها أية سجلات رسمية أو بيانات مدونه. واختيار الإخباريين ليس بالأمر الهين لاسيما في المجتمعات الكبيرة والمعقدة نسبياً حيث يواجه الباحث مسألة اختيار وتمثيل هؤلاء الإخباريين لقطاعات المجتمع المختلفة، ثم يأتي بعد الإخباريين تحديد الجماعات والأشخاص والتنظيمات الرسمية وغير الرسمية وحيث تتوقف الاستعانة بهم على تحديد نوعية البحث وهدفه، وفلسفته.

ويستعين الباحثون بعدد من أدوات جمع البيانات والمعلومات الإثنوجرافية بعد تحديد العوامل المؤثرة في تحديدها، كطبيعة المجتمع المدروس، وموضوع البحث وتوعيته، وحجم البحث، ومدى الخبرات الفنية المدربة والمتاحة، ومن تلك الأدوات الملاحظة بأنواعها، والمقابلة بأنواعها، ودليل العمل الميداني، والاستعانة بالأجهزة الفنية كأجهزة التسجيل الصوتي، وآلات التصوير الفوتوغرافي والفيديو وغيرها.

بناء الباحث المبتدئ

الباحث المبتدئ في مرحله التدريب والإعداد وكسب المهارات وحسن الأداء ليس مجرد شخص متلقٍ للتلقين والتوجيه فقط لاكتساب قواعد العمل البحثي الاجتماعي والأنثروبولوجي، وإنما إلى جانب ذلك يجب أن يتوافر لديه سمات وصفات من بينها ما يلي:

١. أن يكون على قدر من الموهبة الشخصية، مقرونة بحسن التصرف واللياقة والتحمل، مع ذاكرة قويه لاسترجاع وتذكر ما جمعه من بيانات، لاسيما وأنه في بعض الأحيان وأثناء إجراء المقابلات والملاحظات الميدانية لا يستحب أن يقوم بالتسجيل الفوري، وإنما عليه أن يستمع ويصغي ويحاور ويناقش ثم يقوم بتسجيل ما سمعه فيما بعد وفي فترة زمنية لا تجاوز مدة الأربع والعشرين ساعة على الأكثر.
٢. أن يتلقى تدريباً مستمراً على قواعد وأسس الدراسات الحقلية الميدانية، وأن يكون لديه الإلمام بالمبادئ المنهجية الموجهة لعمله الحقلي وكذا الأسس الخاصة بأدوات جمع البيانات.
٣. أن يتوافر في الباحث بعض الخصائص الفيزيقية والجسمية اللازمة للعمل الميداني الحقلي كملامسه الحواس والنطق، لاسيما وأن أدوات البحث الانثروبولوجي تعتمد في أساسها على الملاحظات والمقابلات والوعي الإدراكي والقدرة على توجيه الحديث واستيعاب المعرفة.

٤. أن يُقبل الباحث على عمل البحث بشغف واقتناع شديدين، وأن يبدي اهتماماً بما يقوم به في نطاق البحث العلمي الاجتماعي، وأن يكون مقدراً لما يفعله من نشاط إنساني.
٥. مهارات التدريب والسمات الجسمية للباحث ليست بالأمور الكافية لإتمام مهمته بنجاح، وإنما يجب أن يكون على قدر من الثقافة الاجتماعية، ووعي بالقضايا المجتمعية العامة، لأنه دون شك سيكون في حاجة إليها لاسيما عند إجراء دراسات وأبحاث قد تحتاج إلى هذا النوع من ألوان المعرفة.

الانثروبولوجيا والدراسات الميدانية

تحظى المرحلة السابقة على مرحلة النزول إلى حقل الدراسة الانثروبولوجية الميدانية بمزيد من العناية والإعداد، ويشمل هذا التحضير والإعداد واختيار وتحديد الموضوع أو الموضوعات التي ستبحث، الاختيار المبدئي لأدوات البحث، التدريب الكافي والمستمر للباحثين سواء المبتدئين منهم أم المدربين، إجراء الاتصالات الكافية مع الجهات الرسمية وغير الرسمية، وإعطائها فكرة وافية عن مهمة الباحث الانثروبولوجي أو فريق البحث في حالة البحوث الجماعية، فكل هذه الإجراءات والخطوات تعد في غاية الأهمية بالنسبة لوحدات البحوث والتدريب المنوط بها الإشراف الميداني لأنها تجعلها دائماً في حالة الاختبار المبدئي Pre testing أو التقنين لخطوات عملها الميداني(١٩).

وفي بيان عن الأخلاقيات ومبادئ المسئولية المهنية Statement of Ethics أصدرته الرابطة الانثروبولوجية الأمريكية في مايو ١٩٧١م، وقامت بتنقيحه في أكتوبر ١٩٩٠م(٢٠). جاء فيما يختص بالمسئولية الأخلاقية تجاه الطلاب والمتدربين أنه على الأنثروبولوجي أن يتمسك بروح النزاهة والإنصاف مع الطلاب والمتدربين، وأن يبذل ما في وسعه من أجل تحسين أساليبه التعليمية وطرق التقييم، ناصحاً علمياً وموجهاً واقعياً لتلاميذه، متعاطفاً معهم في الإشراف والتشجيع والمساندة ، موضحا لهم القضايا الأخلاقية التي يمكن أن تواجههم في عملهم الحقلي، وفي كل الأحوال فإن مسئولية الإشراف على مجتمع الباحثين العلميين، ومن بينهم من يعملون في مجالات التدريب والبحث الانثروبولوجي، تتلخص في الأسس التالية:

١- السعي نحو التأهيل العلمي المتميز على قدر يكفل حسن القيام بدور البحث العلمي في كل أنشطته وأهدافه.
٢- العمل على تحصين الباحثين والمتدربين من الوقوع في بعض المثالب التي تتصل بالإجراءات البحثية، وخصوصاً ما يتصل منها بالمزالق الأخلاقية.

٣- العمل على زيادة وعي الباحثين بالقيم الأخلاقية والإنسانية الموجهة للعمل العلمي، وبما يعود على الباحث والمجتمع بالنفع العام في ضوء التوظيف الايجابي لما خرج به من نتائج.

إذن يتضح مما سبق أن للتدريب الانثروبولوجي أهمية قصوى في إعداد الباحثين الذين يجب أن يتلقوا تدريباً مستمراً على أصول وقواعد إجراء الدراسات الحقلية، وإذا كانت هذه المسئولية مشتركه يسهم فيها الأساتذة والخبراء والمساعدون والمشرفون الميدانيون كلُ بقدر إسهامه وطاقته في التوجيه والإرشاد. فإن للأشراف الميداني في هذا العمل الدور الأساسي لاسيما عندما يكون التدريب ميدانياً في خضم الحياة الاجتماعية والثقافية للجماعة أو المجتمع، وفي إطار واقعية الحياة اليومية والقدرة على مواجهة الأشخاص فيها مع عرض رسالة التدريب أو البحث على أعضاء المجتمع بشئ من الوضوح والصراحة والصدق.

لهذا يكون المشرف الميداني مسئولاً عن توجيه المتدربين وجامعي البيانات أثناء قيامهم الفعلي بعملهم، مع مراقبة وملاحظة أدائهم، والعودة بهم إلى طريق البحث الصحيح في حاله خروج البعض منهم عن مشروعية العمل الميداني، وامتصاص بصدر رحب وأناء وصبر كل ما يواجه بعضهم من مشكلات، وهذا لا يتحقق إلا إذا كان المشرف الميداني نفسه قد أحسن اختياره من بين الأكفاء، ذوي الخبرة والجلد والتفرغ وحسن المراقبة والأداء مع تمتعه بنمط هادئ من العلاقات الاجتماعية والإنسانية، لديه القدرة على الاتصالات مع جهات عديدة من أجل تكوين قاعدة عريضة لمجالات التدريب في شتى مناحي الحياة والأنشطة اليومية، ساعياً إلى جانب رسالته العلمية والإشرافية إلى خلق وإيجاد نموذج يحتذى من العلاقات الطيبة بين زملاء الفريق الواحد من الطلاب والباحثين من خلال غرسه فيهم لقيم التعاون والمثابرة ونقد الذات وحب الآخرين.

البحث الاجتماعي /الأنثروبولوجي وتطبيقاته

تمثل دراسة الظواهر الاجتماعية ميادين ومجالات هامه للبحث والتقصي، لا في مجال الانثروبولوجيا (علم الإنسان) وحدها، وإنما في مجالات للبحث في العديد من أفرع المعرفة الاجتماعية والإنسانية.

ولما كانت الظاهرة الاجتماعية أو الإنسانية هي منتج إنساني في المقام الأول داخل المجتمع، وبما أن دراسة سلوك الإنسان تعد من أصعب وأعقد الدراسات والأبحاث التي تتناوله، فلاشك أن دراسة الظاهرة الاجتماعية تتطلب أيضاً مهارة فائقة من جانب الباحثين، وأول ما يشغل هؤلاء الباحثين هو توجهات علمهم نحو الكشف عن أسباب وخصائص تلك الظاهرات الاجتماعية، أو بمعنى آخر الاهتمام بدراسة الفلسفة العامة التي أحاطت وتحيط بوجود ظواهر داخل المجتمع، ومن هنا يحظى مفهوم السببية Causality الخاص بالكشف عن الأسباب التي من أجلها وجدت الظاهرة في المجتمع بعناية خاصة حيث أننا ننظر إلى حادثه ما أو عدة حوادث على أنها تمثل "سبباً" أو مجموعة من الأسباب التي يترتب عليها "آثاراً" معينه أو ما يطلق عليها في غالبية الأحيان "بالنتائج".

ولكن العلم الحديث وتنوع أدوات البحث فيه – بما في ذلك علم الانثروبولوجيا – وتدخل تخصصاته وارتباط أجزائه بعضها ببعض يؤكد على مسألة تعدد العوامل المسببة لوقوع الحوادث أو الظاهرات مع الأخذ في الاعتبار أن هناك شروطاً ضرورية، وشروطاً كافية Sufficient لإحداث ظاهرة معينه.

وفي ضوء تنوع أدوات البحث العلمي وتداخل التخصصات المعرفية البيئية، ونظراً لتعقد ظروف الحياة المجتمعية وتشابك نظمها وأنساقها، فإن الطريقة البنائية لدراسة وفهم الظواهر المجتمعية قد فرضت نفسها كطريقة منهجية بحثية على الكثير من ألوان المعرفة ودروب الفكر، الآمر الذي جعل من فلسفة العلم عند تفسيره للظواهر الاجتماعية تفسيراً علمياً وواقعياً يهتم بما يلي:

١) عدم الفصل بين سياسة البحث العلمي وتوجهاته ومبادئه وأهدافه، وبين عموميات السياسة الاجتماعية للمجتمع بما في ذلك السياسة السيادية أو سلطة الدولة، وهنا يأتي الارتباط بين البحث العلمي وسياساته وبين فلسفة الدولة أو "أيديولوجيتها" وأن كان هذا القول لا يرضي بعض من يعملون في حقل البحث العلمي، إلا انه لا يخلو من كثير من المبادئ والاعتبارات الأخلاقية لاسيما عند تطبيق الطرق والمناهج المستخدمة في البحث، أما المسائل السياسية فستكون أكثر اتصالاً بجوهر البحث ذاته والاستعانة بما انتهى إليه من نتائج تطبيقية في خدمة المجتمع.

٢) الاهتمام بتفسير وتحليل المتغيرات Analysis of Variables المجتمعية والثقافية المحلية والوافدة على نطاق وحدود المجتمع أو الظاهرة المدروسة وهو أمر يكشف عن مدى بيان قوة أو ضعف العلاقات والارتباطات القائمة بين نظم المجتمع، ومتغيرات الظاهرة، وفي هذا الشأن لابد للباحث أن يراعي ما يلي :

- عند تحليل المتغيرات وتفسير التغيرات Changes لابد من مراعاة وفهم الشروط المساهمة Contribution.
- التفسير في ضوء الشروط الممكنة والطارئه والمحتملة Contingent.
- وأخيراً مراعاة الشروط البديلة Alternative التي يمكن أن تشترك في إحداث ظاهرة معينه أو في جعل وقوعها أمراً مرجحاً.

٣) العلم نشاط ومنتج أنساني، يتحدد بسياق اجتماعي واقتصادي تاريخى ويرتبط في تطوره بحاجات أعضاء المجتمع المنتجين، ولكون العلم نشاطاً إنسانياً فهو يتأثر بالعلاقات الاجتماعية المسيطرة في المجتمع المعني بالدراسة. من هذا المنطلق لابد أن تكون درجة إلمام الباحث بالوعي الاجتماعي – والذي هو حصاد تفاعلي جدلي لمدركات وتصورات جماعية للواقع الاجتماعي – كبيرة وفي هذا السياق ستأتي معطيات العلم ومخرجاته معبرة عن المطالب الأساسية والبنائية لهذا الواقع المجتمعي. وعموماً فإن مسألة الوعي لم تعد بالبعد أو المقوم الهين فى النظر إليها والأخذ بها في توجيه الدراسات الحقلية التطبيقية وذلك نظراً لتنوع وتعدد درجات الوعي الاجتماعي، والوعي العلمي ووعي الباحث نفسه الذي يعني بالمصالح التي يريد إبرازها والعمل على تحقيقها في بحثه، وانه مهما اختلفت درجات الوعي وتباينت إلا أن المهم في ذلك هو وعي الباحث بالواقع الاجتماعي الذي سيدرسه.

٤) يرتبط بالنقطة السابقة حول الوعي بمختلف درجاته، ما قد يؤخذ على البحوث الاجتماعية بأن هناك قدراً هائلاً منها قد أجرى دون أن تتوافر النية عند بعض القائمين بها لإمكانية وضع نتائج أبحاثهم موضع التطبيقات العملية ذلك في الوقت الذي لا يمكن فيه تجاهل أهمية البحوث الاجتماعية والانثروبولوجية وتطبيقاتها الساعية إلى تحسين مستوى الحياة الاجتماعية والنهوض بنوعية الحياة، وذلك من خلال مد صناع القرارات بالمشورة والوسائل التي تعاونهم في اتخاذ قراراتهم، وفي ذلك تحديد واضح لمجال الانثروبولوجيا التطبيقية وهدفها في شتى المجالات والأنشطة الحياتية، وفضلاً

عن ذلك فإن القيمة التطبيقية التي تكمن وراء فلسفة البحوث وأهميتها تتضح فيما يقوم به العلماء والباحثون في هذا المجال من دراسات تقويمية للبرامج والمشروعات المتصلة بالسياسة العامة للمجتمع.

٥) إذا كنا قد اشرنا إلى أهمية التكامل المنهجي في مجالات البحث في العلوم الاجتماعية، فإن الانثروبولوجيا التطبيقية Applied Anthropology التي تدرس الثقافات والقضايا البحثية في وقتها الراهن دون الاعتماد كلياً على الوثائق والسجلات التاريخية وذاكرة كبار السن (الإخباريين Informants) فإنها تسعى إلى القيام بالبحوث التي تعالج المشكلات التي تنبع من الحاجات الأساسية لأعضاء المجتمعات المختلفة. فالأنثروبولوجيا التطبيقية إلى جانب أنها دراسات تقويمية لمشروعات مجتمعية في مجالات عديدة مثل الصحة والسكان والتعليم والسياسة والإدارة والتنمية، فإنها تسعى أيضاً مع غيرها من العلوم الاجتماعية (علم الاجتماع والخدمة الاجتماعية) إلى إيجاد صيغة علمية للتحكم في الثقافة المتغيرة الناجمة عن عوامل التغير الاجتماعي والثقافي.

الهوامش والمراجع

١- أنظر في ذلك :

- عبد الباسط محمد عبد المعطي، البحث الاجتماعي : محاولة نحو رؤية نقدية لمنهجه وأبعاده دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٤، ص ٩٦.

Nagle, E., The structure of science – problems the Logic of scientific Explanation, New York, 2007.

2- Timasheff , N., Sociological Theory, Its Nature and Growth, Random House , N Y., 1988.

٣- أنظر في ذلك :

Braithwaite, R.B., Scientific Explanation; A study of the Function of Theory, Harper & Brothers New York, 1960.

Hillway, Introduction to research, Houghton Mifflin company, Boston 1978, pp. 12-15.

Gopal, M.H., An Introduction to research procedures in social sciences Asia publishing House, Bombay, 1992, pp. 6-9.

4- Bernard, C., An Introduction to the study of experimental Medicine, N Y, (1949) 1997, pp. 18-22.

5- Beveridge, W., The Art of scientific investigation, William Heinman Ltd , London, (1951) 1987, p. 139.

٦- أنظر في ذلك :

- محمد عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٩٠

- مراد وهبة، ويوسف شلاله، المعجم الفلسفي، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ١٩٧١.

7- Pareto, F., The Mind and Society, Trans. From Italian, by: Bongiornas, Dover publishers, Inc. N Y, 1998.

٨- سليمان نجم خلف، طرق ووسائل البحث في علم الإنسان : مدخل عام، تأليف مجموعة من أساتذة قسم الاجتماع بجامعة الإمارات العربية المتحدة، دار القلم للنشر والتوزيع، دبي، الإمارات، ١٩٩٥.

٩- حسين محمد فهيم، أدب الرحلات : دراسة تحليلية من منظور إثنوجرافي ، سلسلة عالم المعرفة رقم ١٣٨، الكويت، ١٩٨٩.

10- Leedy, Paul, P., Practical Research: Planning and Design, Macmillan, Co., Inc., New York, 1974.

١١- راجع في ذلك :

- جمال زكي و السيد ياسين، أسس البحث الاجتماعي، دار الفكر العربي، بيروت ١٩٦٢م.
- ديوبولد فان دالين، مناهج البحث العلمي في التربية وعلم النفس، ترجمة محمد شبل نوفل وسليمان الشيخ وطلعت غبريال، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ١٩٦٩.

١٢- أنظر في ذلك :

- حسن شحاته سعفان، تاريخ الفكر الاجتماعي والمدارس الاجتماعية، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٩.
- محمد على محمد، تاريخ علم الاجتماع، الرواد والاتجاهات المعاصرة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٩.

١٣- روبرت لوى، تاريخ الإثنولوجيا : من البدايات حتى الحرب العالمية الثانية، ترجمة نظير جاهل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت الطبعة الأولى للترجمة، ١٩٩٢م.

١٤- للمزيد حول ما قام به الرحالة العرب والمسلمون راجع :

- أبن بطوطة، أبو عبد الله، رحلة ابن بطوطة، تقديم كرم البستاني، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٦٠م.
- ابن جبير، أبو الحسن محمد، رحلة ابن جبير، دار صادر للطباعة والنشر بيروت، ١٩٦٤م.
- أبو الحسن المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، المطبعة البهية المصرية، القاهرة، ١٩٤٦م.
- أحمد بن فضلان، رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة، حققها سامي الدهان، مطبوعات المجمع العلمي، دمشق ١٩٥٩م.
- المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله بن أبو بكر (المعروف بالبشاري) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، شيراز ٣٧٥هـ/٩٨٥م.

١٥- إيفانز بريتشارد، ترجمة أحمد أبوزيد، الأنثروبولوجيا الاجتماعية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ١٩٧٢.

١٦- أيكه هولتكرانس، قاموس مصطلحات الإثنولوجيا والفولكلور، ترجمة محمد الجوهرى وحسن الشامي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٣م.

17- Stacey, Margaret, Method of Social Research, Pergamon, London, 1969.

18- Fermsan, G. & Levin J., Social Research, John Wiley, New York, 1975.

19- Goade, W. J. & Hatt, P.K., Method in Social Research, John Wiley, N.Y, 1975.

20. Spencer, Robert F., (ed), Method and Perspective in Anthropology, The University of Mennosita press 1954.